الحقيبة

مجموعة قصصية

وردة بن كلوة

ماستر

الحقيبـة

مجموعة قصصية

وردة بن كلوة

تصميم الغلاف
بيشوى ظريف

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠١٩/٢٠٨٦٨م

ISBN: 978-977-85571-3-8

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

© ماســـتر
٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــــداء

الحمد لله دائما وأبدا
والصلاة والسلام على النبي محمدا
وبعد : أهدي عملي هذا
إلى من أحببتهم وأحبهم فردا فردا
دون أن أنسى أو استثني أحدا
وأولاهم أمّي التي حبها في عرش القلب مخلدا

الحـقيبة

منذ نعومة أظافري وأنا أبحث عن ذاتي وعما تريد، سلكت العديد من الطرق وجربت عدة أمور، فلم أجد نفسي ترتاح إلا مع الورقة والقلم، وبعد صراع مرير وتردد كبيرين، أذنت لنفسي بأن ترحل إلى عالم الجمال، عالم الإبداع والفن والخيال إنه عالم التأليف عالم الكتابة فهو عالم فيه من الدواء لكل داء.

الحـقيبة رحلة لأصحاب الشقاء والتعب، ومعاني لمن أراد أن يعطي لفكره فرصة معايشة أفكار الآخرين. أردتها رحلة بين الواقع والخيال، أحكي تارة عن الواقع المرّ. عن المجتمع، عن العالم الذي نسير فيه، وتارة أخرى أسبح في الخيال أنسج صورا للجمال.

الحقيبة هي إبحار في أعماق الذات، مصالحة مع الذات، نقطة نظام من أجل الاستعداد للمضي قدما في مسيرة الحياة.

تسري أيامي وأنا سلطانة زماني، حققت عدّة أماني، كنت زهرة في البستان تهزها الرّياح هنا وهناك ولا تبالي، فمن مثلي، تعرفت على عدّة أنّاس، نجحت في دراستي وتفوقت مثل زميلاتي، هكذا كان عطاء وسخاء ولم أعرف بدّا للأحزان، أم أنّني كنت أدفنها بالأماني وكنت: «مثل المصدق المخدوع».

لتنقلب الدّنيا من أمامي، ووجدت أمور تلاحقني ومسؤولية تعاتبني، والرعب من مستقبل مجهول يهاجمني وسط عالم يحاصرني.

كم أصابتني من نائبة وهرب النوم من جفني، صرت أرثي على حالي. تألمت وصبرت وكففت دمعي لكنّني عزمت فوجدت قراراتي تبحث عن إسعادي، تبحث عن ابتسامتي.

قررت أن أبدأ من الصفر، لا ما أغباني فالصفر قد كنت عنده، سأعد من الواحد، من الواحد تركت سفينة الأيام تسري وأنا أراقب، هل تقذف بي إلى النّهر، أم توصلني إلى برّ الأمان؟

همست لي أفكاري العقل غالب لا محالة فسلمت أمري ولم أستسلم، فكيف أسكن والوقت يسري، عرفت كم سخرت مني أيامي.

حلّ عام جديد وعزمت أن أكون جديدة، قويّة، حزنت وأردت البحث عن النسيان...عزمت أن أجهز حقيبة سفري!..

فلتستعدوا، لكن أنذركم أنّني لا أعرف وجهتي فلا تلوموني إن كانت خريطتي غير مرسومة.

أراني أسير بخطى متثاقلة إلى الموت...حاملة حقيبتي...
أسير بخطى شاردة الذهن...بخطى لا هي للشجاع المقدام للشهادة بفخر وحماس...
ولا هي خطى الفار من الموت...
لا أدري إن كانت الجرعة كافية لأسقط بساحة الفداء؟
أريد الموت.
بل ألهث وراء الحياة،
وربّما هي من يريدني!
مرحبا سيدي الطبيب...

سألني الطبيب: منذ متى وأنت مصابة بهوس الرّحيل ؟
هل علمت ما بي ! أجبته بخبث، رغما أنّني لا أحب إلا الصدق.
اللحظة فقط سأجهز حقيبتي.
نعم لقد انتهى الأمر وقررت السفر، لماذا الكذب ؟ لقد حسمت أمري.

منذ العام الجديد أو منذ ولدت زادت معي هذه الجرثومة.
سيّدتي لا أحب أن أكون غبية...لا..ولا.
عقلي جامد...أريد الرّحيل...أريد الهروب إلى قارة أخرى...
إنها قارة تقدّس السكون.
سوف أستجمع قواي وأرحل بحثا عن الترياق بين أعشاب الرّبيع.

حذرتني حكمة ذات يوم من الجنون ! خادعتها عن نفسي وأقررت لها بأنّني لن أحيد...مستحيل.
أعطتني درسا حفظته عن ظهر قلب، بعد الشدة يأتي الفرج.

هكذا هي الأم عطوف حنون، تخاف من نسمات الرّيح على أفراخها كالطير في أوكارها.

رأيتها متجبرة مكشرة عن أنيابها في الذود عن صبيانها،
هي أنانية بحبّها ... تنفر من كلّ حبّ بحضرة أولادها.
لا نلومها فطبعها هكذا ... وربّما الخالق قدرا كذا!..

تنهدت إحداهن إذا ذكرت أمي بحضورها ... وربّما ذرفت دموعا خفية لفراق أمها.

يا من لم يذق طعم الأم وحنانها
قد تكون أمامه ولا يعطيها حقها ... وهي تصفح ... ولا يقدّر ذلك،
لا يحس بنعمتها إلاّ بعد زوالها.
ترى كم من عظيم لمسنا قيمته بعدما افتقدناه ؟

ما حقيقة الحبّ

خادعتها عن نفسي ورحت أجهز حقيبتي،
سوف أرحل بحثا عن الحبّ، فلم أستوعب طريقتكم في الحبّ.

فالحبّ ليس رواية عنترة وعبلة أو مجنون ليلى، الحبّ ليس روميو وجولييت،
الحبّ ليس ما قيل وقص عن هؤلاء وغيرهم.

فعجبا لأمر رجال، أصبح همهم السعي وراء الفتيات لا لشيء سوى للعبث واللّهو وصرف المال.

فكم من عفيفات رمت بهنّ ظروف العيش في أنياب الاستغلال، حيث ذهبت فتاتين إلى مدير طلبا للعمل ليطلب منهما إحضار الملف وبعد العودة بالملف ليصارحهما بكلّ وقاحة بأنّه لم يكن يرغب إلا في التعرف عليهما والحديث إلى إحداهنّ وتمضية الوقت.

وأخرى وزعت رقم هاتفها آملة في تلقي اتصال يحمل بشرى بالوظيفة، بعد أن سلكت عدّة سبل، ليتصل أحدهم قائلا: «منصبك جاهز، فالشروط التي نبحث عنها متوفرة فيك»، لتستعد للمقابلة في الأخير يظهر بأنه من أصحاب المكر.

وغيرها من المواقف لو تتبعناها لم نصل الطريق، لكن إلى متى

سيدي ؟

ومع هذا وذاك أنصحك آنستي سيّدتي بالاحتياط فمهما حافظت على احترامك فإنّ كيدهم غير بعيد، وإيّاك والثقة والأمر الأول والأخير بيدك سيّدتي.

فكم من فتاة رقصت على إيقاع الحبّ. حتى سقطت مغشي عليها ليتفرج على منظرها ويرحل ليراقص غيرها.

الحبّ شجاعة ووفاء ...
الحبّ طريق معبّد ... باسمه يكون الإيثار.

أسـامة

بإحدى القرى كان يعيش الشيخ محمود رفقة زوجته الحاجة صفية، يقضي يومه مترددا مابين البيت والمزرعة التي ورثها عن والده.

تمضي السنين، والزوجان راضيان بالعيشة التي يعيشونها، يرتشفان سويا حلو الأيّام ومرّها، تلك الحياة التي رزقتهم بابنين فأحسنا تربيتهما.

فكان عمّار الابن الأصغر يذهب رفقة والده إلى المزرعة، ليساعده في تفقد شؤون الأبقار والماعز التي كانوا يملكونها، ثم يسقي الأرض أو يحرثها ويجهزها لموسم البذر، فصارت تربطه علاقة بتلك المزرعة التي أصبح يحن إليها، ويهتم بشؤونها عوضا عن أبيه الذي كان يكتفي بتوجيهه ونصحه. أما أسامة فقد اهتم بمواصلة دراسته.

في أحد الأيام ذهب عمّار إلى المزرعة في الصباح الباكر كعادته، إذا به يصادف فتاة وهي في طريق العودة إلى بيتها، كانت قد ملأت جرّة ماء من العين المجاورة لمزرعة الشيخ محمود، وجه عمّار نظره نحو الفتاة، فإذا هي ابنة القرية «بهية» التي لطالما قيل عن جمالها الكثير، لكنّه لم يصدق، أو بالأحرى لم يراها وهي تقف أمامه شامخة كجذع النخلة، لم يلمح جمالها كما هي الآن بعيناها الحوريتان، ووجهها الصافي، وبشرتها التي تنافس صفاء القمر، بشعرها الأسود الذي تدلى على كتفيها متمردا على خمارها المزركش بألوان الأزهار قد وضعته على

رأسها محتشمة.

في لحظة أوقعت بنفسه أثرا، شيئا لم يحسّه من قبل، نوعا من الانجذاب والميول، وعند عودته إلى البيت صرّح لوالدته بأنّه يرغب في ابنة الجيران «بهيّة» زوجة له، راحا الوالدين يخطبا الفتاة من أهلها فوافقوا.

هكذا سبق عمّار أخاه الأكبر أسامة إلى خطبة الفتاة التي أحبّها في هدوء، الفتاة التي كان ينتظر أن يهيأ لها بيتا وحياة تليق بجمالها، لا تلك الحياة التي تبقي جمالها حبيس القرية، فلطالما كان أسامة يرى «بهيّة»، يحلم بها وهي بفستانها الأبيض تزف إليه، يحلم بها برفقته تكتشف أسرار العالم، فاتحة ثغرها العريض لتهديه ابتسامتها، هكذا رسم صورتها التي احتفظ بها إلى أن يستطيع رأيتها في الواقع، لكن ما العمل وقد فازبها أخاه الأصغر الذي لم يراها إلاّ لتوه، الذي لم تأرقه في أحلامه، ما الفائدة من البقاء في هذه القرية التي أصبحت أجنبية عنه وأنكرته في لحظة من الزمن؟ قرّر أسامة الرّحيل بعد زواج أخيه.

بعد رحيل أسامة مات الشيخ محمود، تاركا الحاجة صفيّة تصارع الحياة رفقة ولدها عمّار وزوجته «بهيّة»، لكن سرعان ما أصيبت الأم صفية بمرض ألزمها الفراش لترحل متأثرة بمرضها.

حزن عمّار لفقدان والده، والدته، حزن لرحيل أخاه، لزم البيت أياما، مما جعل زوجته «بهيّة» تقلق عليه، فراحت تحاوره قائلة: «أرجوك يا عمّار رحل من رحل، لكن نحن هنا، فانظر إلى المطلوب منك، فهناك أولاد في انتظارك، لا تنسى المزرعة التي تركها والدك أمانة لديك».

في يوم من الأيام، نهض عمّار من سباته باكرا وخرج قاصدا المزرعة وقد انكشف النهار، عند وصوله إلى المزرعة، رفع رأسه إلى ضوء الشمس وأهداها ابتسامة واسعة ممزوجة بين الآسى على فقدان الأحبة وبين أمل تجدد الحياة والسعادة، ثمّ طأطأ رأسه في اتجاه الأرض، أخذ حفنة من التربة مخاطبا إياها وهي تنسل من بين أصابعة: «أعدك أيتها الأرض أنّني سأجعلك جنّة من أجل أخي أسامة، وفي تربتك هاته سأغرس أزهار الفل، والأقحوان وسأنتظر الربيع لتنمو الأزهار وأقطف إحداهن، منك فقط سأقطف زهرة لأهديها إلى بهيّة».

مدينة السلام

الحبّ ربّما قرأته في جريدة عن أم منحت ابنها هديّة بمناسبة عيد الطفولة،

أيّ هديّة !.. منحته إحدى كليتيها لتنقذه !..ربّما هذا الوفاء.

الحبّ نفس قويّة تقهر البّاطل لتدافع عن الحق... فكم من يائس أراد الانتحار، لكن كان هناك حبّ أسمى وطاهر منعه من ارتكاب البليّة.

رأيت الحبّ أن تكف عن الآخرين ... رأيت الحبّ إن آذوك وجدت نفسك تصبر وهي قادرة على البطش.

الحبّ أن تقول نعم لنعيش سويا بسلام
أجل سوف أرحل،
فاتركوني أرحل بحثا عن محطات الأمان،
أتركوني أبحث عن مدينة السلام.
أريد أن أكون خفيفة،
كالحمامة ... كالريشة ... كي أعبر مدن السلام.
آه...رحمة الله عليك يا حورية.

لا أعرف هذا الشعور الغريب، فكلما طالبت بالسلام شعرت بالحريّة...وكلما شعرت بالحريّة ذكرت اسم حورية.

حفظ لنا التاريخ أبطاله وتصفحنا على أسماء أبطالنا، ولكن كم من بطلات ولدن في عز الحريّة، فهنّ من سلالة من سبقتهن في البطولات والكفاح، وحفيدات لالة فاطمة انسومر و وريدة مداد

وجميلة بوحيرد.... وغيرهنّ كثيرات.

حورية كانت بذرة في التربة التي حرّرها الجزائريون. كانت فتاة في السادسة من العمر لمّا أخذت الجزائر الاستقلال. فلم تشهد سوى على الزغاريد والهتافات والأفراح والأعلام ترفرف في سماء الوطن فراحت تصفق وتبتسم وهي لا تفقه شيئا. دخلت المدرسة وترعرعت وشربت من لبن الحريّة ففقهت معناها.

شاءت الأقدار أن تكبر حورية وتسافر للعمل بفرنسا التي أنهكت بلدها وأجدادها. عملت في إحدى المصانع وكان في المصنع ممن ينظرون إلى الجزائريين بأعين الاستصغار.

من بينهم عاملة كانت تعلم بأنّ حورية جزائرية الأصل. فكانت تكنّ لها الحقد والعداوة. فكلما تمرّحورية بطريقها إلاّ وراحت تعايرها وتسبّها.

لم تحتمل حورية الذّل والهوان. فكان يسري في عروقها الدّم العربي. وروح الوطنية. رفعت للمدير ما تعانيه من ظلم. دون جدوى. فما كان من أمرها إلاّ أن دبرت للثأر لكرامتها وعزمت أن تلقّن تلك المعتدية درسا لن تنساه من ذاكرتها.

وفي إحدى الأيام بينما حورية مارة في أجنحة المصنع. التقت بتلك العاملة التي هجمت عليها بوابل من السبّ كعادتها. هنا لم تتملك حورية نفسها وضربتها بإناء من زجاج كان بالقرب منها. فسقطت المرأة مغشى عليها والدّم يسيل على جبينها. لكن حورية كانت قد قدمت شكوى ضدها ولم يكن عليها سوى دفع غرامة مالية. بعد أن لقنتها درسا في الأدب والأخلاق.

لا تحـزن

لا أعرف إن كنت سأفتح أبواب المجانين!
هل سأقتحم عالم المجانين ؟

أحبّ هذه المدينة!.. بل أجدني مرغمة على ضمها!..كم أتعبتني هذه المدينة!

مرحبا يا بائع الصفحات...أتعرفني على أصدقائك؟ وهل ستعقد بيننا لقاء؟

فآمل أن تلتقي أحلامنا...فوحدهم رفاقك يعرفون لغة الغرباء.

كان لي صديق، لكنّني لا أجد لي أصدقاء منذ قررت الرّحيل انقطعت صلتي بهم، سئمت لحظات الوداع.

صديق كان يوما بحاجة إلى مواساتي، رحت أطمئنه،
يا صديقي لا تحزن، فما تلك إلاّ هلاوس !.. أتمنى أن تزول.

صديق رأيته في صفحات بيضاء نقش عليها بالأزرق، فمزق كبدي، وشتت أفكاري
حتى ركبتني هواجس!.. فرحت أرسمه.
أجل كان أسمرا، قصيرا، هزيل الجسد..لا..لا أريد!..

كان يجر رداءه الذي لا يلائم مقاسه..يجر رداءه وهو حافي القدمين!..

أظافره وجد التف تحتها عشا... الشعر الأسود الجميل صار خيوطا تثقل عاتقه،

رأيت في صورته ذلك الوجه الشاحب تبرز منه عينين عسليتين مغرورقتين،
أردت سماع أنينه فلم أقدر، فصوته قد أبحه الزمن!..

رأيته قابع في زاوية متخشبا !..لا يتكلم، لا يبتسم، لا يتحرك، لم أفهم منه شيئا. حينها تذكرت ربّما أعرفه ؟! وربّما التقينا في محطة انتظار؟!..

يا صديقي لا تحزن، فرأيت بجوارك عظيم!..فلتأنس به.
كان بجواره ذلك الرجل الشهم الطويل القامة، ذا ملابس لائقة.

شخصا قد اعتنى بمظهره، صاحب العينين الثاقبتين، يبتسم حينا ويكشر أحيانا!

فلتأنس بذلك الذي وجدته نشيطا، كثير الحركة، فلتعتبر من كلامه، فكلامه كله حكمة، لولا أنّه غلبته وساوس هو الآخر!..

كان بجانبه يروح ويجيء، بكل جرأة ناداني؟!..
إرتعشت!.. أجل فهو يريد أن يفضي بأمر خطير!..

حكى لي عن باية، عن ليلة عرسه، حكى عن ابنتهما مريم، وعن مدرستها!..

قال لي أنّه فرعون، هتلر، وربّما جورج بوش!..

حدثني بأنّه طبيب، هو أنشاتين، وربّما كان الفرابي، هو المدير، قال أنّه الرئيس!..

أتعلمون بسذاجة رحت أنصت له واستسلمت لخطاباته، صدقته!..

أجل أنت عظيم يا صديقي، وبإذن الله ستكون عظيم.

عظيما هو كان برجولته، بثقافته وتعلمه، لكنّه سرقه الهوس!..

فكن شجاعا يا صديقي .. وسآخذ بيدك طول محطة الزمن!..

هو صديق رسمته من ورقات، سرقته من صفحات، ففي الحبّ حتى السرقة حلال.

لا تلمني يا صديقي، فربّما أردت لك الشفاء كما أردت لك الحياة ؟!

أجل..سوف نقطف سويا زهرة من الأيام..بأوّل فجر الرّبيع!..

سلـيمة

كما أذكر تلك الصديقة...التي شكت لي آلامها...وحزنها، فرحت أنقشه تمثالا أمامي.

قالت لي بلغي رسالتي إلى سليمة:
« إلى التي ملكت قلبي وتركتني أتعذب في بحر المآسي.
سليمة، أقسم لك بعذابي وآلامي أنّني أحبّك.
من أجلك أنا في الجوى ولوعة،
تحملين اسما أصبحت أعيره كل اهتمام،
اسم صغير... يحمل معاني كبيرة.

السين
سعادتي أنت سلامتي،

اللام
بك لئلائي التام،

الميم
أنت مستودع أسراري،

الياء
ياسمين مجرد أشم رائحته أنسى أقراحي،

التاء
فيك ترياق أهاتي.

كيف تهجريني وأنت وجودي ؟

أرجوك عودي...لأقول لك لا تتركيني ».

قد أرسلت بريدك يا صديقتي، وأنا في أحر من الجمر.
وربّما شاء القدر لسليمة أن تعيش أم أنّها خلقت أصلا لتعيش.
فبذكرى سليمة البريئة، قررت أن أتقمص دور محامي الحق العام،
وأبحث عن أي ركح يسمح لي بالمرافعة.
ليست لي عقدة نكوص إلى مرحلة الطفولة،
ولكن باسم سليمة وباسم كل طفولة،
سأكون طفلة...سأكون طفلة حتى ما فوق العشرين،
في عمر العشر سنوات،
أو حتى ست سنوات،
سوف أبحث عن أي طفل لألعب معه.
لأهتف معه،
خلقت لأعيش.
فدعوني طفلا حتى أكبر.

الآلـة

جهزت حقيبة سفري...أتجرؤون على مرافقتي في سفري؟
فلتستعدوا، لكن أنذركم أنّني لا أعرف وجهتي فلا تلوموني إن كانت خريطتي غير مرسومة.

تحضرني اللحظة وأنا أضع أمتعتي بالحقيبة تلك الآلة.
كانت هناك آلة صدقوني آلة بإحساس ... آلة أنانية

تتعب الآلة ولا تريد التوقف...جامدة ساكنة لكنّها تطبع...بل هي آلة طموحة !

آلة دخلت عقول وخرقت صفحات فألهمتها وسلبتها عن وظيفتها.

آلة سافرت مع عبد القاهر الجرجاني، وابن جني، عاشت مع نازك الملائكة غاصت في شعرزهيربن أبي سلمى...آلة طبعت أحرف من الأدب...فراحت تطلب المزيد.

آلة ركِبت الأرقام والحسابات والمخططات فأرهقتها...فهي لا تركن للأعداد...آلة في أيام جعلت اللّيل صديقا والنّهاررفيقا.

هل توقفت الآلة ؟ بل طلبت تصليح العطب وهي تطلب المزيد..

أجل فالسفر شاق، ولابد للذات من ترياق، لكنّهم لا يمهلونها لحظة التنفس.

هكذا الآلة أحست بالاستغلال كما يستغلنا الاستعمار.

الاستعمـار

عفوا ! من هذا الاستعمار؟ أي استعمار أقصد ؟

لم أرى الاستعمار هو ذالك الذي وضع قدمه بالجزائر في عام ١٨٣٠ لينجلي عنها في ٥ جويلية ١٩٦٢، فتلك لم تكن سوى مسألة تسوية حسابات، نعم فقدنا أجدادنا، وذلك هو الثمن.

لكن الخوف كل الخوف من الاستعمار المستتر، ذلك الذي يتسرب إلى البلدان مدعيا الحماية، أو ليساعد أمة مغلوبة على أمرها في ضبط أمنها، هو الذي يفرض عليك النفط ليعطيك لقمة، هو ذلك الذي يتحسس متى يسلبك قطرة ماء ولو استطاع لحاجك على الهواء الذي تتنفسه.

عفوا مرة أخرى فهذا الاستعمار قد صار مكشوفا، وترك أمره للمحاكم.

فالمعمر الخطير ذلك الذي يجهله المجتمع، ذلك الذي يفسد له أبناءه ويزين لهم المساوئ، فيسلبهم عقولهم وتفكيرهم، وربّما دينهم، فالحذر كلّ الحذر!..

فالاستعمار ليس من يطأ أرضنا ويجعلنا نندب حظنا فحسب، بل ذاك الذي يدغدغنا ليسرق ابتسامتنا، ويغرس جذوره بأعماق أسرتنا، فما أشق أن نحيا غرباء وسط أهالينا!

القنـاع

كم فتحت ثغري، وبدت الابتسامة على وجهي، لم أحرم أحدا منها. فالكلّ يبتسم لي ... لكن قست عليّ الأيام، وطارت الابتسامة من فمي ولم أستطع مواجهة غيري بعبوسي، فقد تتحرك شفتاي وتبتسم عيناي، لكن لا أعلم إن كانت رغما عني، ارتديت قناع يصدر ابتسامة لا أعلم أفيها نفاق أم ريّاء! لكن لا أقصد الإيذاء.

لا أدري إن كنت أسخر من غيري أم غيري يستهزأ بي، لكن في كلّ الأحوال كنت أسخر من نفسي هاته التي اكتسبت قناع باسمٍ عبوس إن جاز القول.

أحب الكتاب، نعم ما زلت على ذكرى معلمي الذي لقنني كيف أقرأه حرفا حرفا، ذلك المعلم الذي لا أدري ما فعلت به الأيام ؟ ولو استطعت لأنقذته من أنيابها، القناعة كنز لا يفنى، لكن في زمن كل شيء زادت قيمته حتى السلع.

فمعلمي أحق بكل كنز، لكن أتمم فقط أمانتك بكل نزاهة، وأنا سأحمل مع أمتعتي مأزرك المغبر بالطباشير، أو حتى محفظتك وهندامك اللذين مهما بدلتهما فلا نعرفهما إلا باللّون الأبيض، أو آخذ صورتك معي وأنت على المصطبة بشعرك الأبيض وسط عز شبابك، نعم سوف آخذ تذكارا منك حتى أظفر بدور المعلم.

أحبّ الكتاب فهو وفيّ وجدته وقت الضيق ... لكنّني سرعان ما أملُّ وينادي القناع فأميل إلى النفور منه... لا تعاتبني يا صديقي فمهما يكن لك مكانتك عندي مقدسة وربما عند غيري... لا تلمني ففي كل الأحوال أنا صادقة لولا القناع.

أرتاح مع الجريدة...كل يوم أنباء جديدة، بل سئمت تعبت من خرافات هاته الجريدة ... لا تلوميني يا سيدتي فلطالما أردت أن توعيني وبالثقافة تزوديني وبمن حولي تخبريني.

عزمت شراء كتاب، وجدت سائل أمام الباب قال لي: هلا تمهلت برهة وسمعتني، فأنا منك أسأل صدقة... حبست رجلي عن الخطى، رفعت عيني فنظرة إلى وجهه نظرة خاطفة فإذا بعيناه قد دبلتا من قهر الزمن، ويداه قد تعبتا من كثرة السؤال، ناهيك عمّا فعل الوقت بتقاسيم وجهه...غمست يدي في جيبي ونلته قطعة نقدية.

قال لي: بارك الله فيك ورزقك خيرا على ما أعطيت، مضيت ورحت أتحدث مع نفسي هل أحبّ الخير؟ هل ما فعلته عن نفسي أم أنّني رَكَّبْتُ قناعي؟

أردت أن أسعد بيتي... سأشتري حليب وبن وسكر لأمي وإخوتي ... ثغري باسم ... لكن أعماقي حزينة، بداخلي بركان خامد يغلي من البكاء الصامت، فهل يسقط القناع؟

ليث تعثر نفسي على القناع وتسير به دوما... لكن ويحك فالقناع من خِدَاعٍ فلا تلتزميه، فهلا لبست تارة هذا وتارة لبثت لحقيقتك؟

لعبـة السـياسـة

أنفر من السياسة، فهي لعبة فيها الكثير من الخداع
هي لعبة مملّة...خطيرة.

لا أحبّ السياسة فلها شأنها ولي شأني ... هذا هو مبدئي ربّما لأنّي تأثرت بقول جورج أرويل بأنّ «لغة السياسة تم تصميمها لتجعل الكذب يبدو صادقا والقتل محترما».

ولكن أجدني مدفوعة لها دفعا لكوني أنا...لكوني من الوجود... أجد نفسي مقحمة فيها.

لا أعاتب السياسي ولا السياسيين فهم مغلوبون على أمرهم، ولكن أصب سخطي على تلك السيدة التي فتنتهم.

لكن سيّدي ... هلا فتحت لك دفتري وكشفت عن حبري ؟
فهو ينزف عن وقت أصبح التعايش صعب معه، قد أصاب الشعب العته.

هانت النفوس، وأصبح فيهم من يرمي نفسه في اليمِّ، وأسفاه أصبحت الحيتان ترقص على جثث الأبرياء، ما لم يحن البحر عليها فيرميها مشوهة على الشاطئ، كشبان إحدى الأحياء الذين قرّروا الإبحار للوصول إلى الضفة المقابلة، فاشتروا سلاح موتهم قاصدين

طريق الشمال، ربّما كانوا ثماني شبان اشتركوا في شراء زورق شراعي ليفروا بواسطته من الفقر حالمين بالغنى، فسقط القارب في وسط البحار وتم انتشال الجثث وإحضارها إلى ذويهم. هكذا كانت فاجعة ذلك الحي في أبنائه.

كما تحضرني ذكرى ذلك الأب الذي راح إلى مركز الشرطة ليوقع على محضر استلام جثة ولده الذي أراد أن يصارع الأمواج من أجل الوصول إلى بلد رسمه في الأحلام، بقاربه البسيط فقذفت به الأمواج إلى الساحل المقابل ميتا، ليجد الأب أم الولد قد لحقت بابنها إلى الموت من شدة صاعقة النبأ.

إنه زمن الهجرة غير الشرعية الذي أصبح شائعا بالعامية «عهد الحرافة»

هو وقت فيه الحِكم نوت الرحيل قبل موعد السفر؟ فالتعلم كلّ هذا وذاك.

قد أصبح المنصب لنيل النصيب من الترف، ثم المزيد من المطالب من أجل الجلوس على كرسي، ناهيك عن المطالبة بجواز سفر ديبلوماسي ... و... و...

نسيت!..بلد أصبح فيها الزيت يقهر كلّ منافس !.وارتفعت قيمة البطاطس.

في وقت أصبحت سرقة الأطفال حرفة مشروعة سنّتها الأيّام... وغضت أبصارها عن السرقة الممنوعة والتسول الغير مشروع قد حتم وأبيح.

مجتمع زاد فيه الغني ثراءا وأوضحت الطبقية بارزة فيه بظهور الطبقة الفقيرة فأصبح من المتقبل حدوث أي أمر. وأصبحنا كلّنا بؤساء

كلنا بؤساء

في إحدى الأحياء كانت تقيم الفتاة ربيعة، هي فتاة تجاوزت العشرين من عمرها، سمراء البشرة، ذات العينين الواسعتين مع فم عريض مبتسم، معتدلة القامة، ذات شعر أشقر تتباهى به على قريناتها.

نشأت ربيعة كفتاة فقيرة، لكنها فتاة حالمة لم ترضى الاستسلام أبدا للفقر الذي ترعرعت فيه، فتراودها في أحلام اليقظة بأن تكون نفسها تلك الأميرة المتألقة، التي يقام لها ألف حساب. فحتى من يراها وهي في الشارع يظّن أنّها غنيّة لا لشيء سوى لأنّها تبدي عكس ما تعيش.

في أيام الشتاء الهادئة، أطلت الشمس مشرقة معلنة عن يوم دافئ فرغبت ربيعة في الخروج إلى وسط المدينة بعد الظهيرة مع والدتها البسيطة المسماة بالخالة سعدية.

وبعد التنزه وشراء ما راودهما قفلتا راجعتين إلى البيت قبل مغيب الشمس، فطلبت الفتاة من أمها أن يعودا مشيا إلى البيت لتنشط أحلام اليقظة، ففي طريق العودة وبينما كانتا تمشيان في طمأنينة صادفهما لصّ الذي غرّه مظهر ربيعة وتحدث إلى نفسه قائلا: «لا أظنني أجد لقمة خيرا منها «، فبكل هدوء اقترب منهما وراح يهدّدها ويطالبها بترك حقيبة اليد التي كانت تحملها، توسلت إليه الخالة سعدية: « أرجوك دعها فليس لدينا أي شيء، يا ولدي أتركها فالحقيبة فارغة، أرجوك فليس لدينا ما نحمله من نقود، صدقني لا

يهمنا سوى الوثائق التي بداخلها ...»

لكن السارق عنيد وأصر على اختطاف الحقيبة فراح يجر الحقيبة حتى أخذها من يد ربيعة، وفرّ هاربا.

لم تجد الأم سبيلا إلاّ أن تستنجد بالمارة وتصيح: «أمسكوه لقد سرق حقيبة ابنتي، إنّه سارق الحقوا به ...» وبينما هي تنادي كان أحد المارة يصطحب معه كلبه فلحق بالسارق وأرجع للفتاة حقيبتها، لأنّه كان يعرفها فهبّ لنجدتها والغريب في الأمر هو أن السّارق كان من أبناء الحي المجاور لكنّه لم يتعرف على فريسته.

ولما أطلع الشاب الخالة سعدية عن أمر السّارق ومن يكون ذهبت تشكوه لعائلته، فوجدت الأم تحضر الخبز الذي يبيعه زوجها في وسط المدينة، في مكان اعتاد الاجتماع فيه وجماعة من أصحابه الذين أبدعوا في الحيل المشروعة لكسب قوت يومهم.

أشفقت سعدية على وضع المرأة ولم تستطع تضخيم الأمر، فحال جارتها لم يكن أحسن حالا منها، واكتفت بالمعاتبة والإشارة إلى ضرورة مراقبة الولد وعدم تركه يستمر في هذا السلوك الذي قد يجلب المشاكل له ولعائلته.

احمر وجه المرأة من الخجل والعار، وراحت تستسمحها باسم الجوار وأنّها سوف تخبر أباه لينظر في شأن هذا الولد.

لما عاد السارق إلى بيته وجد أباه منتظرا إياه غاضبا، لكن سرعان ما تبدلت حاله، وسكن غضبه ثم خاطبه بلهجة تحمل كثيرا من معاني الشفقة:

تسرق من يا بني ... كما قال أحدهم تحت السماء كثير من البؤساء!..

رشـيد

رأيت سيدي في بلدي سوى شمعة أخاف أن يرهقها الظلام الحالك فتذوب.

فهل من منقذ ؟ أين العقول النيرة ؟ أم هجرت كلّ الأدمغة وعجزت الأفكار عن الإبتكار؟ أم حبست وساد الإحتكار؟

يقال الصمت حكمة، فربّما كان رشيد شابا حكيما...فحكي عنه أنّه يحب الصمت ويركن إليه.

رشيد شاب أسمر البشرة، أسود الشعر والعينين، متوسط القامة، كان يعيش رفقة أسرته المكونة من أب وأم وثلاث أبناء، كان هو أصغرهم.

وبمرور الأيام نال الإخوة الثلاثة نصيبهم من التعليم والعناية، تزوج خالد وهو الأخ الأكبر، حيث أجر مسكنا مع زوجته ليؤسس أسرته الجديدة، لكنّه لم يؤمن بفكرة المسؤولية واستقلاله عن العائلة وضرورة الاعتماد على النفس ليعيل الأسرة المرتقبة فلطالما تجرأ على طلب المال من والده الذي يعتمد على مبلغ التقاعد.

أما دحمان الأخ الثاني، فهو مشغول بمشروع زواجه ويطالب بكافة حقوقه، هكذا هي حال خالد ودحمان لم يهتما سوى بأمريهما

ونسيا مسؤوليتهما اتجاه الأسرة، مستغلين طيبة والديهما خصوصا الأم التي لا تستطيع أن ترفض لهما طلبا، فأبناءها مفخرة لها أمام جيرانها، وهم بالنسبة إليها قرة عينيها ولن ترى ضوء العالم إلاّ بضيائهم.

بينما رشيد بعد تخرجه من الجامعة بدأ بكلّ جدٍّ يبحث عن عمل وكله تفاؤل وأمل في بناء مستقبله.

كان يومه يبدأ منذ طلوع الفجر ليرتشف كأس القهوة، ثمّ يرتدي معطفه ليقي نفسه من برودة الجوّ، وبيده حافظة ملفات قد رتب بداخلها شهاداته المختلفة ووثائقه.

فتراه متنقلا ما بين المكتبات بدءا بنسخ الوثائق، ثم يعرج على البلدية قاصدا مصلحة المصادقة على شرعية النسخ في زحمة من النّاس، وكأنّه يجمعهم سبيل واحد في آن واحد وماذا بعد ؟

يظل رشيد واقفا أمام طوابير الانتظار لتبدأ مسيرته بعد ذلك اتجاه مختلف الإدارات قاصدا طلب العمل.

قد يلقى استقبال من إحدى المكاتب، وقد يتوقف عند الحارس الذي خوّل لنفسه سلطة المنع والقبول، فيسمح لمن يشاء بالدخول ويرّد من يشاء.

هكذا كان صباح رشيد ليدخل إلى البيت وقت الغذاء، وربّما قبله بقليل وقد نّال حظّه من التعب وبرفقته جريدة ليطالعها آملا بوجود عروض عمل.

بعد وجبة الغداء وتصفح الجريدة يأخذ قسطا من الرّاحة ثم يستعد لرحلة جديدة بعد الظهيرة دون أن ينسى وثائقه قاصدا إدارات أخرى، ليعود إلى البيت مع اقتراب مغيب الشمس.

وقد يكون في يومه برنامج آخر فيذهب إلى مقهى الانترنت ليمضي صباحه أو مساءه هناك بحثا عن الجديد أو كسبا لمعلومة، أو حتى بحثا عن عروض عمل، ولما لا فهم يعرضون كلّ شيء.

إنّ الوثائق وتصويرها والانتقال ما بين المكاتب يتطلب بعض المصاريف، لكن رشيد كان يتدبر أمره لوحده، حيث كان يساعد التجار في وضع البضاعة بالشاحنات أو ينوب عن أحدهم بين الحين والآخر، ممّا وفر عليه سؤل والديه ولو مبلغا بسيطا.

وهو بين هذا وذاك ينتظر الردود من إحدى المكاتب لعلّ وعسى يكون خبر لقبوله بوظيفة ما يعيل بها أسرته، يكدّ رشيد ويتعب بصمت وعزيمة غير مبالي بجشع أخويه.

طال انتظار رشيد للردود وطال معه السعي وراء الوظيفة، وجد الحياة قاسية فأخويه لم يرحماه ولم يعتقاه، كما أنّه غرق في بيروقراطية الإدارة من جهة أخرى، فآثر الصمت.

عرف أن لقمة العيش وسط هذا الكون قاسية، وكم من أنّاس يتعذبون في الأرض من أجل قطعة خبز.

لقد تعب رشيد...أجل تعب...فعايش عالم يعرف الكذب باحترافية، عالم قد داسه القوي بكلّ صمت...رشيد شاب عاقل لا يحبّ السياسة وإن كان يطالع الأخبار ليقول للعالم نحن هنا وإن كنّا بصمت...

عايش عالم يظلم بجهل...عالم يشنق فيه الحق ببستان العدالة، عالم يصبح فيه الضوء ممنوع على الكبار المسالمين وحتّى الصغار الأبرياء.

عرف رشيد قوانين اللّعبة، فآثر هدوء الإعصار، يرقب وصول السفينة إلى برّ الأمان.

صمت مرغما لأن لعبة الساسة خطيرة، وإلاّ يشهر بالجنون... فهو مشحون بالروح الوطنية، وكان يحلم بفرنسية، ويعشق فلسطينية، ويهيم بكل عربية.

قد قرّر رشيد أن يثور، أن يقولها ولو لمرّة ...لا ولا، لن أرضى بالطغيان.

ما لهذا العالم أصابه الجنون ؟ متى يكون هدوء الإعصار؟

صنع قبلة دافئة على جبين أمّه ملؤها العطف والحنان وقال لها: «أحبّك أمّي وأقدّرك أمّي...لكن لن أرضى بالصمت...فالصمت مذلّة وهوان...»

أربكتني مشاغل رشيد !.. ولكنّني تعلمت من قصة رشيد أن أتكلم...أن يسيل حبري

وأن أرحل بحثا عن مدن السلام، فلن أبقى بهذا المكان.

أنياب الدّهر

بينما أنا أسير، سمعت صوت أنين، رحت أبحث عن مصدر الصوت...أجل تطفلت لكن لم يكن قصدي سوى المواساة...وجدت امرأة شقراء...كساها الله ما شاء من حسن الخلق والأخلاق.

سمعتها تئن لأنّ الزمن خانها...رماها في ثياب الفقر المؤنث.
تعاني عتاب أم ...أرهقتها أقوال الجيران.
تشفق على أب يبكي كلما رآها،

عيناها البحريتين خفت عليهما الهلاك فلم يعد الدمع يجري بهما...

لِما تكسر القارورة كلّما تشاء يا سيّدي ؟

هي لا يضربها فعلك...لولا أنّ الدّهر قد لطمها بأصبعه.

هي لم تطلب أن تكسوها ذهبا، أو تهديها بلورا، لم تطلب إغراقها مالا ولا عسلا... أنسيت أنّك كنت تتقصى خطاها طالبا رضاها ؟

أم تناسيت ما وعدتها!
ألم تقل أنّها جنتك !
فما الذي حولها إلى جحيمك ؟

ما الذي غير صورتها لديك ؟
لما تنكت عهدها ؟
قد تكون قريبتك!
فراعي حرمت أهلك.
حتى ولو عقد القدر صفقة بينكما صدفة.
فكن إنسانيا!
لما تكركرها إلى المحاكم ؟
لما ترميها إلى أنياب الزمن ... ويحك فالزمن لا يرحم.
أجل هكذا سوف أرافع نيابة عنك سيّدتي.
وربّما باسمك سوف أقتص لكلّ امرأه رماها زوجها دون سبب يذكر.

عقارب الساعة

رفعت ذراعي اليسرى كي أنظر إلى التوقيت.

فبينما أنا كذلك، راحت الساعة تسلط علّيا عقاربها لينقضوا علّيا بالهجوم.

يا لا فاجعتي، إن أردتم إيلامي فليكن ذلك...

فلتقذفوا بسمكم...

أجل لا أخافه بذراعي الأيمن ! أقبل فقد اعتاد الدّم أن يهطل منها.

لكن لا ترحلوا إلى أعماقي، كلا لن تصلوا إلى كبدي...لن تقطعوا كبدي...إلاّ هذا.

تفطنت برهة، رأيت صورتي داخل الساعة...أحمد الله، فالعطب لم يكن إلاّ بعقارب الساعة.

وسأستيقظ ذات صباح، وسأستطيع بيميني هاته قطف زهرة.

زهرة عطرها من مسك الغنائم.

تلك الزهرة التي صرت مهووسة بها.

ولأجلها جمعت حقيبتي ونويت الرّحيل،

دون أن أرسم خريطتي،

فلا متعة إلا باكتشاف المجهول.

الربيع

لقد أعتقت نفسي...وتركت لها العنان...فهي حرة طليقة... وفررت إلى بستان أقطف أزهارا لا أعرف إن كان الحقل مباحا!

فسوف أرحل في الربيع، سوف أتجول بالحقول.

سأسهر على شعاع القمر، سأتحاور مع فكري، ما أجمل هذا المنظر...سأبقى مستيقظة حتى صياح الدّيك، حتى آذان الفجر.

سأرتشف كوب لبن، وأغدو إلى الحقول، لقد بدأ الصباح وأرسلت الشمس شعاعها، الجوّ لطيف، السماء صافية...

ها قد قابلتني العصافير تغني لي أنشودة الصباح من أعالي أشجار الزيتون.

سوف أسير وأسير في طريق معبد مستقيم، طريق من الرّمل القرمدي اللزج، على حافتيه أعشاب غرقت عيناي في خضرتها.

كم يحنّ الإنسان إلى تربته تلك، فنحن من تراب وإلى التراب، وسوف أرافع عن كل تربة في الأرض سلبت قهرا.
قد ألتفت عن يميني أو عن يساري لأمتع بصري بهاته الجنان، مددت يدي لأقطف زهرة الفل أو الياسمين أو حتى عباد الشمس لا

يهم، المهمُّ أنها زهرة من بستان، بادرتني فراشة برفرفة جناحيها قد عرفت تحيتك فلك ألف سلام يا حمامة الأزهار.

ما ألطفك أيتها الضفدعة تعالي، ها قد ردّت عليا بنقنقة كأنها تفهمني وتحاورني.

سرت وسرت لمحت شلال على يميني فاكتشفت سرَّ اخضرار الجنان، ساورتني نفسي أن أهبط إلى أسفل الشلال لأروى من ماءه العذب، الأمر خطير ومجازفة، لكن سأخوض المغامرة...نزلت عبر الصخور الرمادية ها قد غرفت من الماء...

إنّها عطلتي... إنّها رحلتي، إنّه الربيع ... سأواصل المسير ... فهل من مزيد ؟

من أجل كل هؤلاء،
سوف أرتب حقيبتي لأرحل،
بحثا عن أول محكمة أنشر بها مستنداتي،
ليس العيب في عثراتنا، ولكن العيب أن نتمادى في خطئنا.
والجميل في الأمر هو أن نقف أمام هذا الكون وجها لوجه...بكل صراحتنا وحقيقتنا، حتى نستطيع المضي قدما في مسيرة هذه الحياة.

أعتقد أنّنا بحاجة إلى كثير من الرياضة. تلك الرياضة التي تنشط الجسم فتقيه من العلّل والسقم، فيصبح سفير سلم وأمان، فالرياضة وحدها كم وحدت أصواتا بعد تشتتها، الرياضة التي تعلمنا تقبل هزائمنا بكل روح رياضية، ومنها نفهم لعبة القدر، مثلما حدث في أحد الأحياء.

العـرافـة

يحكى أنه كانت هناك امرأة تحمل في طياتها الكثير من الخبِّ، كانت امرأة متوسطة القدّ، هزيلة الجسدّ، ملتحفة، وجهها تجعد قليلا، ربّما قد تجاوزت الخمسين من العمر بسنوات، عيناها قد انغرستا في جمجمتها، فشكلها يروع قد يربك للوهلة الأولى، لكن إذا سمعت كلامها سحرتك حلاوته لتنسى مساوؤها، إنّها قارئة الطالع.

تحمل صرّة تضمها إلى صدرها، فهي كلها قد صرّت في ثوب الخديعة، كانت تدّعي أنّ لها القدرة على معرفة الغيب والتنبؤ على ما سيصيب، حيث كانت تطوف الشوارع وتقرع الأبواب، فمن تسعى لحماية نفسها لا تفتح الباب غالقة أذنيها كأنّها لم تسمع شيء فتصون بذلك نفسها.

وهناك من البيوت ولحسن حظها من يخرج أهلها فمنهم من يذهب لقضاء شؤونه، ومنهم من يذهب إلى العمل، والبقية إما بالمدارس أو الجامعات أو الشوارع والمقاهي، وبيوت تقع في شراكها.

في يوم من الأيّام، وبينما هي مارة بأحد الأحياء كعادتها كان هناك فتى لم يتجاوز سنه الثانية عشر، ولم يسعفه الحظ للإلتحاق بالمدرسة، فوالداه أهملاه تاركين للشارع مهمة تنشئته.

اقتربت منه العجوز بكل مكروخداع وأعطته قطعة شوكولاطة

بغية الوصول إلى هدفها، فراحت تسأله بداية ما اسمك يا بني ؟ فأجابها الصبي اسمي بلقاسم، وأين تسكن؟ فأشار بيده إلى إحدى أبواب الحي، ثم قالت له: وهل هناك من أحد في البيت ؟

فبدأ يتكلم ببراءة الطفولة عن أسرار البيت، إن أمي تغسل الملابس، ومعها جدتي تحضر الفطور، أتعرفين يا خالة إنّه طبق الفاصولياء الذي أحبه، إنهنّ بمفردهن في البيت، لأنّ عمي قد خرج باكرا إلى الصيد ولن يعود إلاّ بعد الظهيرة، بينما أبي إنّه غائب منذ أسبوع فقد رافق جدي في رحلته إلى الصحراء، فجدي يحبّ قضاء فصل الربيع هناك، ولن يعودا إلا مع حلول الصيف.

هكذا عرفت المرأة العجوز أسرار البيت وخباياه من وراء الطفل المسكين مستغلة براءته.

طرقت الباب الذي أرشدها إليه الطفل بلقاسم، ففتحت عليها والدة الطفل، فقالت لها المرأة أريد حماتك، فلم تشك في أمرها، وراحت تنادي حماتها التي أدخلت تلك المرأة إلى فناء البيت.

وبدأت متحدثة، لقد ساقني إلى هذا البيت أمر مهمّ، إن زوجك وابنك في الصحراء وكلاهما في خطر.

فانبهرت الحماة لِمَا سمعته، وتعجبت لأمر المرأة كيف علمت بغيابهما، وبكل بساطة استسلمت للخدعة وصدقت الأكاذيب، وطلبت منها أن تخبرها المزيد.

قالت صاحبة المكرِ للحماة: إنّ الثمن غال وعليك أن تختاري،

فلن أخبرك بالمزيد حتى تدفعي الثمن.

قالت الحماة: وكم تريدين فأنا مستعدة لأدفع أي شيء.

أجابت العجوز: كل ما تملكين من ذهب، فراحت المسكينة تجمع ما لديها وأعطته لتلك المرأة.

يبدوا أنّ الشمطاء لم تقنع، نظرت إلى الكنّة التي كانت مغروسة في شغلها لا تبالي بما يجري حولها. وقالت: وهاته أليس لديها ما تقدمه؟ أجابت الحماة ليس لديها سوى ذلك الحلق الذي في أذنيها، فردت الماكرة: مهما يكن فعلى الأقل تضحي بشيء، فطلبت الحماة من الكنّة أن تستسلم لطلب العجوز.

وضعت المرأة الصيغة في صرة وراحت تعركها ببعضها. قالت الآن هما في مأمن ثم اتجهت قبل الباب وانصرفت مواصلة سيرها بحثا عن فريسة أخرى، لتترك تلك العائلة في جوّ يسوده نوعا من الغيوم، حينئذ اتصل الجد ليخبرهم بأن «ابنه» قد لدغته عقرب ولم يستطع إنقاذه فمات.

الجزائر (مستغانم) ٢٠٠٨/٠٧/٢٦

١٥:٣٠

تشاء السنين أن أعود في جوّ السفر من منطلق لست عدوي

لست عدّوي

أرِق دمي، واشفي غليلك من دمي
لكنّك لست عدّوي...بل ذاك عدّوي
ينتظر متى تتخلص منّي لينتقم لي
لا حبّا فيّا، بل لأنّه عدّوي وعدّوك
احتل أرضي وأرضك
وأنت في حساب بيني وبينك
ضع يدك بيدي لنحارب عدّوي
أم صفي معي دينك
لكن لا تنسى بعد ذلك عدّوي
فهو عدوّي وعدّوك

أرفض يدي إن شئت...لكن بمن تستعين بعدي في القضاء على عدوي

لأنّك ستواجهه وحدك بعدي
فكلانا فلسطيني...وراءنا كيان صهيوني
فضع يدك بيدي...ولنمضي في مواجهة العدّو الإسرائيلي
قبل أن يحتار العالم في أمرك وأمري
فأنت لست عدّوي...بل ذاك عدّوك وعدّوي

أوتار السعادة

ذات يوم أو بأدق تعبير ذات مساء لأن الصباح ليس ملكي بكل صراحة

قررت أن أكون سعيدة ....

في أمسيات غشت الدافئة وقبل هجوم نسمات الغروب ركبت سفينة السعادة

خلتني ركبت قارب النجاة مع سيدنا نوح عليه السلام
هجمت بقلمي على الحبر أسيل قتراته أنشد أمواج السعادة

لا أعرف أفرحا بشهر غشت وعزة حرارته وزرقة بحره أم ابتهاجا برحلة الأحلام هاته.

وبين هذا وذاك أحس بأن السعادة تغمرني وتداعبني موسعة شفتاي باسمة لقلمي كأني أتلذذ بالانتقام منه تارة، وتارة ابتسامة صديق يشاركني بهجتي

لا أنكر أنني بكيت حزنا على فراق الأحبة طبعا هم أقارب سقطت ورقتهم من سفينة الحياة، ورفيقات أخريات قررت اعتزالهنّ مختارة عشق القلم متمادية في التغزل به

هنّ رفقات كلؤلؤ بل نجمات الليل ... تخليدا لذكراهنّ أبيت إلا أن يكنّ حاضرات في رحلتي هاته.

توسوس لي نفسي بالحزن على فراقهم لكن آبى عليها إلا أن تكون سعيدة.

تكدست الأحزان أهل، قريب عزيز، لا أدري إن كانت أحزان أم أنا التي تحمل مشاعر جد حساسة.

أ

أجل زارتني ذكرى جدتي الحبيبة التي رضعت منها حب الحياة شربت منها السعادة حتى الثمالة تعلقت بها، فلا زلت أحزن لفراقها، لكن سرعان ما أتذكر أحلى أوقاتي معها لما كانت تمشطني لتأخذني بأي فرح بالحي (القرابة) وتخيط لي ثوب الأفراح لتخيط معه أحلى الذكريات، نعم لا زلت أحزن لفراقها لكن ذكرى اللحظات الجميلة تمنعني من ذلك وتبقيني برحلة السعادة، فمحرم علي الغرق، انتبهت من غفوتي قليلا واسترسلت في السفينة مستأنسة بدعاوى الرحمة لها وللأحبة الذين فارقونا.

هكذا وأنا على شاطئ بني صاف الساحر دغدغت مسامعي إذاعة عين تموشنت بتهاني ناجحي التعليم الثانوي، لتعاتبني رمال سيدي المجدوب وبحرها المرهوب فتردني إلى أمواج إذاعة مستغانم. هو قدري أن تتأرجح سفينتي بين بحرين متباعدين وتقول لي هاته سعادتك قد دفنّا الأحزان لنرقص على أنغام «بلوموا» أو على ضربات «العيساوة».

من أجل هذا أنا أريد أن أحمل في حقيبتي السعادة بما يكفيني

ويكفيكم فهلموا، ولنرقص على العود والطبل لنرقص على الناي وعلى زرنة «العيساوة» لنشرب السعادة حتى الثمالة ولنهنأ بالسعادة ولندس بأقدامنا أوتار الحزن ولنستنشق فجر الحرية. لأننا عزمنا على مسايرة ريتم السعادة ولتهئ الدنيا بأحزانها ولنفرح بسعادتنا.

رسائل مشفرة

رسائل مشفرة منك ... ومن أنت لما ألاحقك ...

لا أحتاج لكابوسك ... لا تغريني بطولاتك ... سيدي كرامتي ... عفوا أخلاقي لا تسمح لي بذلك ... فقد دأبت نفسي على عدم التمرد ... هكذا رضيت أن أعقد صفقة معك أنت سيدي لنأخذ درب الحياة سويا جنبا إلى جنب ... دون مغامرات روميو وجولييت ... دون عصيان ... أعتز بأخي وأنت أخ آخر ساقه لي القدر...

فلنعقد العزم على السفر ... لكن احميني من الخطر ... احميني من ألاعيبك ... أبعد عني لعبة الهوى ... قد أقبل بك لكن في رحلة يذكرها غيرنا من البشر... في حقيبتي ... لأني عقدت العزم على السفر... اليوم ... غدا... بعد غد ... حتى ولو في سفر من آخر درجة مع البعوض في مؤخرة القاطرة ... عزمت السفر.

المحتال

كعادة الصعاليك، جمع المعلومات عن فريسته، إنها امرأة في الخمسين من عمرها تسمى «الحاجة كريمة» وزوجها شارف على عتبة الشيخوخة إنّه «الحاج بوعزة»، أما ولدهما الوحيد «علي» فقد سافر في مهمة عمل أرسله المدير لتفقد إحدى المشاريع السياحية. يعيشان الحياة ببساطتها وعفويتها.

- طرق الباب، خاطبها بسرعة الذئب المفترس: صباح الخير الحاجة، ردت عليه خيريا ولدي. ودون أن تستجوبه هجم عليها بقوله: أنا صديق ابنك «علي» ولم أذهب معه في المهمّة، لكنّه اتصل بي وهو بحاجة إلى مبلغ من المال.

- صدقته الحاجة «كريمة» وفتحت له باب بيتها، وبكرمها العربي الأصيل أحضرت له قهوة ساخنة بالحليب وبعض الحلوى كمقدمة ترحيب، ثم لجأت إلى «القصعة والكسكاس» لإعداد الكسكس أو الطبق الشهير لديها عندما يزورها أي زائر «السفة» مؤدية واجب الضيافة تتلهف سماع أخبارولدها المسافر.

- عاد «الحاج بوعزة» من السوق الذي يعتبر ضريبة يومية عليه، وأطلعته على الأمر. رحبّ الشيخ بالضيف ثم انفرد «بالحاجة كريمة» وقال لها: إنّني لأظنه لص، فليس من عادة ابننا أن يطلب منّا المال، كما أنّي أعرف أصحابه فردا فردا، ولم أرى هذا الشخص معه

أبدا.

ردت الحاجة «كريمة» بطيبة قلب : (واش بيك يا راجل ألعن الشيطان، وليدك محتاج مصروف). قاطعها الحاج «بوعزة» بغضب «لن أعطيه فلسا واحدا»

لم تجد الحاجة «كريمة» مخرجا من هذا الموقف الذي وقعت فيه سوى الاعتذار من الصعلوك بعد أن ملأت قفة بما جاد بها الحاج بوعزة من تسوقه لهذا اليوم ممّا لذ وطاب من فاكهة ولحم دجاج، وختمتها بخبز الفرن «المطلوع» وقالت للصعلوك «يا بني أبلغ «علي» سلامنا وأخبره بأن والده ليس لديه مصروف.

خابت آمال المحتال فأخذ القفة وهو يجر ثوب الهزيمة.

أشقياء

دقت الساعة السادسة مساء، حينما طرق «منير» باب المنزل سارعت الأم إلى فتح الباب-ألقى عليها التحية المعتادة وأخذ كرسي في المطبخ ينتظر أخته «حليمة» التي عادة ما تقدم له القهوة. لكنه استبطأها هذه المرّة ليسأل أمّه عنها، فأجابته بأنها قلقة بشأنها فهي لم تعد من الثانوية لحد الساعة. وفي أثناء الحديث طرقت حليمة الباب ليهجم عليها منير بصفعتان إلى الخد دون أن يسألها عن سبب التأخر. فجأة سقطت الأم مغشي عليها سارع منير إلى كوب ماء وأحضرت حليمة قارورة عطر من غرفتها. استفاقت الأم وطلبا منها المعذرة.

ردت الأم متنهدة: نعم أسامحكما يا فلذتا كبدي ... لطالما سامحتكما.

منير: وهل بدر منّا من قبل ما أزعجك ؟

الأم: أوتسأل ؟ لطالما كنتما مزعجان ... ولكن أحبّكما

حليمة: كيف ذلك يا أمي ؟

الأم: حملتكما في بطني ووضعتكما بعسر بعد أن شقت بطني ... ومع ذلك أحبّكما ... فعانيت ما عنيت من مشقة الحمل والوضع لكن سرعان ما نسيت إزعاجكما بمجرد أن سمعت رنين صوتكما بعد الوضع ... تملآ عيناي بريقا.

منير: سامحيني أمي

حليمة: سامحيني أمي

الأم: كنتما تحبوان وتزعجاني بكسر الأشياء وتلطيخ الأرضية

بما بدا لكما ... فأنت يا منير أتذكر يوما كنت تلعب في غرفة النوم ووالدك يستعد لطلائها بالدهن لأجد الدهن مفرغا على الأرض. مسحتها وأنا أضحك كأنّ ابني بطل فيلم كرتوني.

وأنت يا حليمة أتذكر ذات يوم خرجت إلى الشارع لتلعبي فغسلت رأس صاحبتك بالرمل فما كان منّي إلا أن أحضرت البنت وقمت بتنظيف شعرها وأعطيتها دمية من الدمى لتسكت ولا تخبر أمها التي كنت متأكدة بأنها سترفع شكوى ضدنا. ولكن ربنا ستر.

- توفي والدكما رحمة الله عليه وترككما صبيان، فخرجت إلى العمل في ربيع عمري لأؤمن لكما قوتكما ولبسكما. وأنا أكابد وأصارع مدمني الشهوات... وبالرغم من ذالك أنزعج من أجلكما وتزعجاني ولكن أنتما قرتا عيني.

- منير: ماذا بعد ذلك أمي .. إحكي لنا فكلامك كله عبرة

- حليمة: نعم أمّي فكلامك قد أفاقني من غفلتي، كأني كنت في حلم.

- منير: عندها حق. أكملي أمّي.

الأم: في يوم من الأيام اشتريت دمية لأختك لأنّها كانت بالمستشفى. إلا أنّك غضبت، وعزمت ألا تذهب إلى المدرسة حتى أشتري لك كرة تلعب بها مع أقرانك وكان عمرك ١٢ سنة تقريبا. فلم أجد سبيلا سوى الاستدانة من أحدى الجارات ووفرت لك الكرة حتى لا تتغيب عن الدراسة.

- حليمة: حقا. كم نحن مزعجان. ولكنّنا نحبك أمّي

- الأم: لكم عانيت حتى تدرسا وأراك يا منير في الجامعة التي أنت فيها الآن. وأتمنى أن تحصل أختك على شهادة البكالوريا عن قريب يا رب.

- حليمة: إن شاء الله أميّ. وأؤكد لك مرة أخرى بأنّني تأخرت بسبب الدروس الخصوصية. ولم استطع الاتصال بك لأخبرك بأنّي سوف أتأخر. وأعدك ألا تتكرر.

- منير: قلقت عليك أختي. لهذا بدر منّي ذالك التصرف. فأعتذر إليك.

- حليمة: لا عليك أخي.

- منيروحليمة: سامحينا يا أغلى أمّ في العالم.

* طبع كل واحد منهما قبلة على خد الأم وجبينها. وعمّت الابتسامة بالبيت.

رسالة من الحيوانات

في رحلتي أبيت إلا أن أحمل معي رسالة الحيوانات
في إحدى الغابات الكثيفة الأشجار، شديدة الخضرة غزيرة المياه ... فاتنة المنظر... تبارك من أنشأ فأبدع ... في تلك النظرة الرائعة كانت تعيش مجموعة من الحيوانات، لكن سرعان ما تبدل حال تلك الغابة ممّا دعا الحيوانات لاجتماع طارئ برئاسة الأسد.

تكلم القرد: سيدي الأسد، أيها الجمع الحضور، لقد كنّا معشر القردة ننط هنا وهناك، ونلعب ونقفز من شجرة لأخرى ونأكل ما تجود به من ثمار. ولكن منذ أن اكتشف الإنسان هذه الغابة حتى راح يقطع أشجارها ويدمّر أغصانها ويخرب جذورها. واليوم ذبلت الأغصان واجتثت الأشجار وجفت الثمار. وما زاد الأمر هولا كثرة الحرائق المفتعلة ليحصلوا على الفحم دون مراعاة حياتنا. وأنا جد خائف على مصيرنا نحن معشر القردة.

طلبت الغزالة الكلمة وراحت تعرض ما تعانيه من بطش الصيادين قائلة: نحن معشر الغزلان، كنّا في حماية الملك بعد أن يكون له منّا نصيب لطعامه. لكن هجم علينا الصيادون بأسلحتهم النارية كثائر مجنون فيصيبوا منّا ما يصيبوا وينجوا منّا من نجا. ونحن نرفع إليكم أمرنا لتنظروا ما أنتم فاعلون فقد يأتي يوم ولن يجد فيه الملك طعام منّا.

ما كادت الغزالة تنهي شكواها، حتى هجم الفيل بالقول: حتى نحن معشر الفيلة لم نسلم من الصيادين ولا يمر يوم إلا وقد أصابوا منّا واحد أو أكثر.

في هذه الأثناء أطلّت سمكة من النهر قائلة: ما شأنكم يا معشر الحيوانات ؟

أجابتها السلحفاة: نحن في اجتماع نناقش فيه ما نعانيه من بطش البشر.

قالت السمكة: حقا إنّه أمر مهم، فحتى نحن الأسماك نعاني من الصيادين ما نعاني، حتى وصل بهم الأمر إلى رمي مواد سامة في عرض البحار والأنهار فيموت منّا الكثير متسمّما.

هنا أخذ ملك الغابة الكلمة: حسنا، يبدو أن الجميع يشكوا من اعتداء البشر. وظلمهم بيّن لا لبس فيه. ولكن ماذا تقترحون فعله ؟

في هذه الأثناء أخذ ابن آوى الكلمة ووجههم بفطنته قائلا: يا سيدي الملك. أيها السادة الحضور إنّ اعتداء الإنسان واضح كما أسلفتم وظلمه كبير ولكن لا سبيل لنا في مقاومة بني البشر. ولكن !

ملك الغابة: ولكن ماذا ؟ هيا هات ما عندك.

ابن آوى: أقترح لو نبعث برسالة إلى الإنسان لعلّنا نظفر بصلح معه. وأنتم تعلمون متى أحبّ الإنسان الحيوان أصبح أحنّ عليه من الأم الرؤوم.

الثور: إنّ كلامك فيه حكمة. فماذا ترى أيها الملك ؟

الأسد: حسنا ! ولكن من سيكون سفيرنا إلى الإنسان ؟

أجاب طائر الهدهد من أعلى الشجرة: أنا سيدي، لطالما كان أجدادي سفراء وقد ألفت مخاطبة البشر.

طار الهدهد عاليا حاملا رسالة الحيوانات إلى الإنسان وعادت الحيوانات إلى نشاطها المعتاد في انتظار عودة طائر الهدهد.

لعنة الفايسبوك

تركت رسالة الهدهد منتظرة أنا بدوري رد الإنسان، وعدت إلى حياتي لأفتش عن شيء قد يصلح أن يرتب في الحقيبة. خطرت ببالي تلك الشتائم المتطورة لا تستعجلوا.

وأنا أحاول الرّد على أحد الدعاوى القضائية، حيث كنت أتربص لأرتدي تلك الجبّة السوداء ذات الشريط الأبيض القابض على العنق خوفا من حنق المسؤولية. تلك البذلة التي روي عنها العديد من الأساطير أشهرها أنّ المحامي ارتداها ليذكر القاضي بما قضى به ذات يوم على شخص بالإعدام ظلما.

هاته المهنة التي حلمت بها ونجحت في ذالك رغم أنّني فشلت في بداية مشواري، أين أدى غيري ممّن هم في سنّي فترة تربص تقدربتسعة أشهر، لكن فشلي بالأول جعلني أؤجل اللحاق بالركب أين أديت فترة تربص لسنتين رأيتها فيها العجب العجاب. تربص قضيته في مكتب فيه من كل قصة عبرة، ومن كل حدث قضية، ويتوفر على كل ظروف الهمّ والغمّ إلا ظروف الراحة، فالمكان ضيق والملفات القديمة قد استولى عليها الغبار والأشد بأسا هو الرطوبة التي تفتت جذران المكتب.

ولكن رغم كل ذلك الحمد لله استطعت التخرج وإتمام التربص وحصلت على لقب «الأستاذة المحامية» وأشكر من أعماق قلبي ذلك الشخص الطيب الذي فتح لي باب مكتبه.

وبينما أنا أتصفح الملف الذي كنت أستعد للرّد عليه، قرأت القضية إنّها شكوى تشتكي بموجبها إحدى الجارات من جارتها بأنّها سبتها وشتمتها وقامت بالتشهير بها. هنا اختزلت ابتسامة تشفي وكأنّي أخاطبهنّ يا معشر النسوة أما تبدّلن طبائعكنّ وتذكرت شجارات جاراتنا أين تخرج الواحدة منهنّ حميّة ودفاعا عن ابنها أو ابنتها لتردّ الأخرى بالمثل ويتعالى التنافس على أبهى حلّل الشتائم. لكن ما إن يؤذن مؤذن العصر حتى تذهب إحداهنّ إلى الأخرى تعزمها على فنجان قهوة وكأن شيطان الصباح فتنهنّ ليتصالحن قبل الغروب.

تقدمت في قراءة الملف، لأجد أنّ أساس الدعوى هو سبّ وتشهير عبر الفايسبوك أين اشتكت إحدى الجارات لجارتها عن الضجيج الذي يحدثه الأولاد أثناء القيلولة فلم يعجب الأمر جارتها واشتد الصراع بينهما وعمل الشيطان فعلته والتهبت نار الحقد بينهما، فقامت الأخيرة بنشر صور جارتها عبر الفايسبوك ممّا أدى بزوجها إلى تطليقها. وانتقام لذلك قامت الضحية (المرأة التي طلقها زوجها) بنشر صور وأسرار الجارة عبر الفايسبوك مع رفع شكوى ضدها. كانت مفاجأتي كبيرة وأيقنت بأنّ للفايسبوك لعنته الخاصة هو الآخر.

جاء الأستاذ متأخرا إلى المكتب كعادته نظرا لارتباطاته، وقف أمامي بقامته الفارعة، وضع يده في جيبه وأرسل قائلا: هل جاوبت على الملف- يقصد قضيتنا هاته، نظر إليّ مستفسرا وكأنّه يريد أن يقول «هل كلت الصاع صاعين» بمعنى آخر أراد إقحامي في الصراع لأوسع تلك الشاكية بوابل من الشتائم. أجبته إجابة التلميذة المجتهدة: نعم أستاذ هل أقرأ على مسامعك مذكرتي الجوابية.

أتوقف هنا ملتزمة بواجب السّر المهني تاركة مآل القضية للمحكمة، وللقارئ الفصل فيما آل إليه التطور التكنولوجي.

أعـز الأصـدقاء

قد تنكر مقولتي عن الصداقة والوفاء في زمن سادت فيه غربة الأشياء ناهيك عن غربة الأفراد. أجل صديقي تعرفت عليه منذ أيّامي الأولى في الدراسة وعبر كافة أطوار التمدرس.

تخرجت من الجامعة ولم يبتعد عنّي رغم أنّني أتهرب منه في بعض الأوقات أو الأيام متحججة بالمناسبات وما أكثرها من مناسبات دينية وأخرى وطنية وبين هذا وذاك الولائم والعزائم والطقوس الدنيوية من مجاملات زياراتية وغيرها. المهم ألف حجة وحجة لأجد نفسي بعيدة عنه، وهو بكل أدب يحترم رغباتي.

وقعت في ضائقة مالية فرحت أبيعه بثمن بخس دنانير معدودات وأنا فرحة بها كأنّي بطلة في الانتقام وتخلصت منه بسهولة. لأنّني متأكدة بأنّه لن يتخلى عنّي وسوف يعود إلي عودة سيدنا يوسف إلى أبيه يعقوب «عليهما السلام».

خاب ظني، كنت أعتقد بأنّه سيشتاق إلي ويبحث عنّي، لكن هيهات هيهات في حقيقة الأمر أنا من كانت مضطرة للبحث عنه. حاولت أن أسلي نفسي مستعينة بما أغرتني به آخر التكنولوجيا الحديثة، فاستعنت بالدنانير القليلة التي أحصل عليها من جراء التضحية به باعتباري الوريثة الشرعية الوحيدة له. فاشتريت علبة تكنولوجيا يطلق عليها بالجيل الرابع ورحت أسبح في عالم التكنولوجيا متناسية

وجوده.

لكنّني اشتقت إلى صديقي، وتذكرت أيّام الصبا، تذكرت أيام المراهقة وأيّام الثانوية كيف نجحت بوجوده إلى جنبي. استرجعت أحلك الظروف لأجده دائما إلى جانبي ليخرجني من الأزمات فعندما قست عليّ الأيّام احتضنني بصدر رحب.

تذكرت كيف تخليت عنه أمام أول زبون ورغم ذلك قابلني بابتسامة فيها كثير من التحدي وبكلام المتيقن من النصر قال «بيعيني كيفما شئت وقتما شئت وبأي ثمن شئت لكنّك كوني متأكدة ستجدينني وقتما شئت « تذكرت تحديه الأخير علمت بأنّني لا أقدر على التضحية به ولا على الابتعاد عنه.

اشتاقت أناملي إلى مداعبة صفحاته تحنّ كفي إلى حمله، اشتاقت عيناي إلى الغرق في كلماته بل وحتى أفكاري عطشى لغذائه غذاء الروح.

والآن هل عندكم شك في مقولتي، هل عندكم تردد في وفاء صديقي، هو سفر بلا قيود ولا حدود. ذلك هو كتابي الذي أشعر بتحسن المزاج لمجرد لمسه. كما قالت «جين سميلي» «العديد من الناس ومن بينهم أنت تشعر بتحسن لمجرد رؤية كتاب».

بين المدينة والقرابة

ولدت بالمدينة، وتربيت بين جدي وجدتي لأبي، ولم أرتوي من حبّ قبيلة الأبوة لكن هذا لا يمنع من حفظ ذكراهم الجميلة، طبعا هم متمردون أبوا إلا أن يكشفوا عن دفاتري ويتسللوا إلى أوراقي عبر حبري، لا مانع لدي ! فكانوا صمام أمان لي في هذه الدنيا.

أعيش في ضوضاء المدينة التي أصبح هواءها يسري في رئتي، لا أخفيكم سرا أنّني أدمنت حبّها رغما عنّي تعلمت فيها وأنا برعمة تصحبني أختي الأكبر منّي إلى المدرسة وتدافع عنّي بلوى قريناتي. ثمّ انتقلت إلى المتوسطة وأنا أجدّ وأجتهد حتى نلت شهادة المتوسطة. وبين هذا وذاك خلدت ذكريات ونجحت في شهادة البكالوريا بعد الخيبة الأولى ودخلت الجامعة وكلّي ذكريات طيبة وجميلة مع الجميع. ربّما لأنّي كنت فتاة مسالمة هكذا يعرفني الجميع.

بلغت مبلغ الشباب وتخرجت إلى الحياة العملية، تعلقت بالمدينة وصرت أخرج غالب الأيام بحثا عن عمل، أو شراء حاجيات ...وأحيانا صرت أتنفس هواءها صباح مساء. متسلية بضجيج السيارات ودخان المصانع، والضوضاء من حولي الكل مستعجل، الكلّ صاحب مسؤولية ولو أنّهم دون فائدة ؟ أدمنت المدينة فالجامعة أقرب منّي المكتبة أقرب منّي وحتى المجلات التي أصبحت قهوة الصباح بالنسبة لي هي الأخرى بمتناولي.

بوسط المدينة وعلى يمين البريد المركزي مقابلا دار البلدية اختار عمي سعيد ركنا لمزاولة نشاطه في بيع الجرائد. وكأنّه اختار مجاورة البلدية ليحكي لها معاناته في صمت دون أن يبوح لها بما في جعبته من آهات طامعا في أن تكون وقفته تلك تبعث برسالة مشفرة إلى المبنى الذي يحوي في داخله ممثلين عن الشعب. أشخاص منحهم ثقته كبقية الشعب مع أنّي أشك أنّه ممن مارس لعبة الاقتراع لعله أصبح كغيره يحسبها علبة سوداء أصبح ميؤوس منها.

في شارع الأقواس يضع عمي سعيد طاولة قديمة زيّنها بجلد مزركش مراعيا بذلك مشاعر زبائنه لكن سرعان ما تكشف أرجلها عن عيوبها.

كل صباح وقبل كل أحد تجد عمي سعيد مستقبلك وسط المدينة وكأنّه يملك مفتاح المدينة. عمي سعيد الرّجل الطيب الذي يحبه كل من اعتاد على وجهه الصبوح. يكون قد تجاوز العقد السادس لكن الجميع يعرفه بعنفوان الشباب. قد لعب الشيب برأسه أمّا عيناه فبالكاد تراهما لكثرة ما يغمضهما وهو يتبسم مقدما لك جريدتك المفضلة، وكأن بيع الجرائد لقنه فن الاتيكيت. لا تدخل معه في حوار إلا وخرج منه منتصرا.

من يوميات عمي سعيد أنّه إذا كان الجوّ باردا فتبدأ جولته من الثامنة صباحا أما في أيام الربيع فتبدأ من السابعة صباحا ليجد لصوص الأنباء قد سبقوه منتظرين طلّته الصباحية ليصبحوه بأحلى تحية، بعدها يبادرهم أحدهم «عمي سعيد مازال ما يجي الجرنان» فرد عليه «مازال يا وليدي راك قبلي هنا، لوكان جا كان راك قريته ورحت لاشغالاتك» مسكين عمي حسان أي أشغال للصوص الأخبار؟

بعد أن نشر الجرائد على طاولته سأله الآخر «عمي سعيد كاش أخبار؟» ليرّد عمي سعيد «ما خبرونيش شراه يقول الجرنان اليوم» وبين أخذ ورد باللهجة الجزائرية تصل حافلة توزيع الجرائد لينشط الجميع لاستقبال أخبار اليوم. وكأنّه يستعجل الجريدة قبل عمي سعيد، ليدفع ثمنها ويهرب مهرولا.

عمّي سعيد هو يوم من يوميات المدينة المجنونة المفعمة بالنشاط ولا مكان للميت فيها. يوميات المدينة التي عشقت هواها.

ولكن رغم كل ذلك أحنّ إلى «القرابة» مكان بعيد عن وسط المدينة، هو مكان يجمع بين تحضر أهل المدينة وبساطة سكان البادية، بيت جدي ذلك الحوش الذي تعلمت فيه حبّ جدي وجدتي والأخوال. ذلك الحوش الذي كنت أزوره كل صائفة. رغم بساطة المكان لكن جماله لا يفارق مخيّلتي، بنيت حيطانه من الحجر الكبير، وإذا طرقت الباب الذي هو عبارة عن باب حديدي كبير قابلك الحوش بطوله وعرضه، عن يمينك تجد صهريج للماء كنا نعوم فيه في شدة الحر. مقابله دكان كان يبيع فيه خالي مواد غذائية عامة لكن سرعان ما أقفله، تتقدم قليلا عن الشمال تجد غرفتان الواحدة وسط الأخرى يشغلها الخال وزوجته. تتقدم قليلا تستقبلك شجرة العنب الذهبي ثم بجانبها غرفة وحيدة كان يشغلها الجد رحمة الله عليه بحثا عن الهدوء وبعدها شجرة التين كنا نتسلقها ونجني ثمارها على اعتبار أنّها سهلة المراس بالمقارنة مع جارتها –شجرة العنب- إذا تقدمت قليلا يقابلك حوش مربع كأنّه صالون استقبال لطالما ارتشفنا الشاي في بهوه ويحلو فيه جلسة العائلة ولاسيما بعد العصر في أمسيات الصيف الحارة. بعده الصالة لكن قبل دخول الصالة يصادفك مطبخ صغير وضعت ثلاجة بوسطه يربطها حزام لتغلق تعبر عن بساطة أصحاب الدار،

وخزانة حملت في جوفها الكثير من مطلوع الجدة. ثمّ تدخل الصالة وهي مكان نوم العائلة وضع بها تلفزة تتسامر العائلة على ضوئها وبالزاوية صندوق خشبي كبير يحمل الدنانير القليلة التي تخبؤها الجدة للضرورة مع ذهبات قليلة اكتسبهن الخالات من عملهنّ ليجهزن أنفسهنّ لزوج المستقبل. فوق الصندوق العجيب رتبت الأفرشة الجميلة بألوانها من بينها فراش جهاز الخالات ...المكان كله صورة عن جمال سكان «القرابة»

في الصالة بابا يؤدي إلى مساحة ترابية صغيرة قد غرست بشجرة الرمّان التي كانت تجود بأحلى ثمارها بفضل عناية الجدة- رحمها الله- نعم هل هناك أحلى من هذا، ثمار بأنواعها في حوش واحد ونحن نعشق ذباب المدينة تبا لنا.

بعد الحديقة الصغيرة كانت هناك غرفة مهجورة للمهملات وهي الأخرى لها قصتها العجيبة. كنّا نسميها بيت الخروف أين كان يقضي بها الخروف أيامه الأخيرة قبل العيد الأضحى. وهاته الغرفة عبارة عن مطبخ كبير به أشياء قديمة تعبر عن أصالة أهل «القرابة»، شدني إليها ذلك القدر التقليدي الفريد من نوعه قدر ضخم أسود خاص بالولائم وإعداد الوجبات الكبيرة. بالإضافة إلى خزانة خشبية كانت مرقدا للقطط حيث تضع صغارها فيه ولا يعارض أحد مادامت في حماية الجدة التي كانت تحضر لها البركوكس عند النفاس.

من أجل كل ذلك وأكثر أحنّ إلى «القرابة» وأفراحها التي كانت تأخذني جدتي إليها، أفراح لا مثيل لها تدوم سبع أيام وسبع ليال أعراس ينصب لها الخيام، فالجميع يفرح والجميع معزوم دون استثناء.

أحبّ «الغرابة» التي أخذت فيها أولى حروفي مع القرآن في مسجد الحي، ذلك المسجد الذي يكاد يطل على حوشنا لولا بيت أو بيتين يفصل بيننا.

من أجل كل ذلك أحنّ إلى شاي «الغرابة» والسنية الذهبية والمبسس-أكلة من السميد والملح- والعيش البسيط.

وبينما أنا في رحلة ما بين «المدينة والغرابة» هاتفتني إحدى الصديقات تذكرني بموعدي بها لزيارتها رجعت مستسلمة إلى المدينة ودروبها ناوية شراء إحدى الصحف التي ما إن أقرأها أسارع لغسل يداي من سوادها وكأني ارتكبت جريمة وأسارع للتطهر منها.

الطيف

منذ أن سكن حبّها في مواطنه، وصاريشتاق للقائها أو اللقاءات التي تغريه بها، أيقنت جيدا بأنها أحكمت قبضتها عليه، وأنّها بمثابة الهواء الذي يستنشقه، تعرف عليها لحظة إحباط قصدها لتعالجه قبل أن يقدم على مالا يحمد عقباه، الانتحار مثلا ؟

تعرف إليها في ظل خيبات الأمل حين أصابه الإحباط بعدما كان يترامى في أحضان المكاتب طالبا فرصة عمل.

كانت حبيبته كلّها فتنة وسحرا، ضياء يتلألأ كالقمر. لم يكن يعرف مغازلة البنات قبلها قط. لكن ما باليد حيلة. سكنته كما سكن هو المدينة.

راح يبثّ إليها جرحه ومأساته، بعد أن أفرغ ما بجعبته وجد نفسه يعزف على أوتار العود، يعزف نغمات الناي بأنامله وهي ترقص وتتمايل يمينا وشمالا لتزيده فتنة وسحرا.

لا مناص منها كلّما وجد بابا للحزن هرع إليها ليجدها متربعة على عرشه ملبية نداءه. لم يصارحها بحبّه ولكن كل ما بينهما رسائل شوق بين أعين تغرورق حنانا.

صار لأجلها يعدّ النجوم بالليل حتى تلفظه خيوط الفجر فيخلد إلى وسادته محتضنا ذكريات حلمه بالأمس.

أصبح يبحث عنها في كل مكان ليتعرف عليها وهي تزداد هروبا وتمنعا، واعدة إياه بالزيارة متى أدمن هواها. ستزوره متى اشتاق إليها ليعدا النجوم بالسماء ويركبا ضياء القمر سويا.

اشتد هوسه بها وصار يبحث عنها في جنبات الظلام وفي وضح النهار لعلّها تمده بجرعة من بصيص الأمل وحتى يبث إليها أشجانه. وقد شاع بالحي نبأ جنونه، ويقول أخرون بل هو حكيم التزم الصمت. وهو لا يأبه بهم مرسل خيوط الانتظار يترقب وصول حبيته كما وعدته.

أخيرا زارته، فسألها بحرقة العاشق الولهان: إلى متى ستظلين تتذللين، متى نعلن حبّنا للملأ ونقيم عرسنا على أنغام العيساوة (طابع فلكلوري) متى تسكنين إليّ.

أجابته: لكنّي أنثى من جنس آخر، من طقوس أخرى لا نعترف بالغايطة والبندير سأقبل بك متى رافقتني إلى طيف الأحلام تداعب نسماتي بأناملك.

- من دون تردد أجابها: من أجلك سأتمرد على الأعراف لأغوص في طقوسك.

أرسلت الشمس أشعتها براقة على المدينة، نهض من غفلته. ومنذ ذلك الحين يحرقه شوق اللقاء ليذوب بين حضورها وغيابها وهي تزداد تمنعا. لكن سرعان ما يزوره طيفها فيغدو عصفورا يشدوا الألحان هنا وهناك راض بلقاء طيفها.

علمتني الحياة

قد تتضارب الأفكار في عقلك، وتتصارع مع الحياة، لكن لابد أن تكون قويا، لابد أن تقاوم وتصبر لأنّك في الأخير ستنتصر على أن تتمسك بالإيمان بالله. تجلّد ولا تنظر إلى الوراء.

لابد أن تكون كالصخرة، كالحديد في سبيل تحقيق أهدافك في سبيل النجاح في الحياة وتسلح بروح الحبّ والتسامح، فالنسعى لتحقيق طموحاتنا بقوة دون أن ننسى بأن طريق الخير هو طريق سلس لتحقيق نجاحاتنا.

ستجد في طريقك دموع، أحزان كآبة، فدس عليها وأكمل مشوارك، ستجد بشرا ليسوا كباقي البشر، بشر طبعهم الاستغلال والاستهزاء وآخرون يأكلهم الحسد فلا تجعل قلبك يقسوا عليهم في لحظة غضب. تذكر بأنّك إنسان من الإنسانية. أنّاس يحسبوك غبيا وأنّاس يحتقرونك فاهجرهم هجرا جميلا واقلب الصفحة إلى صفحة العفو والتسامح وعاملهم بحب.

وهناك أنّاس تتمنى أنّك لم تفارقهم أبدا، أنّاس رسموا أجمل الذكريات في مخيلتك، هم أنّاس تشتاق إليهم لكن يصعب عليك لقاءهم قد التقيت بهم في محطة سفر في قطار في سيارة طاكسي. في ندوة، ورشة عمل، في دورة تكوينية ... قد لا تعاود ملاقاتهم أو أناس تتعرف عليهم عبر مجموعات الواتساب نعم صدق بأنّ في الحياة

أشخاص يزرعون الحبّ والجمال.

وبين هذا وذاك هناك أنّاس هم أحبّاؤك أهلك قد فارقوا الدنيا فلا تنساهم بدعواتك. من أجلهم أحبّ أهلك وأقاربك قل لهم أحبكم قبل أن يرحلوا عنك أو ترحل عنهم. هم أنّاس أغلى ما في الوجود عجزنا أن نقول لهم نحبّكم...من أجلهم تعلم كيف تعيش الحياة بحب ...

هكذا شاءت حقيبتي أن تكون مملوءة بالزاد ... ترى هل ستكون رحلة أخرى ؟

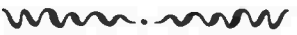

وردة بن كلوة

المحتـــــوى

الإهداء	٣
الحقيبة	٥
ما حقيقة الحب	٩
أسامة	١١
مدينة السلام	١٥
لا تحزن	١٧
سليمة	٢١
الآله	٢٣
الاستعمار	٢٥
القناع	٢٧
لعبة السياسة	٢٩
كلنا بؤساء	٣٣
رشيد	٣٥
أنياب الدهر	٣٩
الربيع	٤٣
العرافة	٤٧
لست عدوى	٥١
أوتار السعادة	٥٣
رسائل مشفرة	٥٧
المحتال	٥٩
أشقياء	٦١
رسالة من الحيوانات	٦٥

المحتـــوى

لعنة الفايسبوك ٦٩
أعز الأصدقاء ٧٣
بين المدينة والقرابة ٧٥
الطيف ٨١
علمتني الحياة ٨٣

ماســـتر©